

عبقرية تيرنس ماليك تختصر الزمان والمكان والحرب

فيلم «حياة مخبأة».. سرد مدهش لوقائع حقيقية يمتزج فيه الدرامي بالوثائقي



تماه كلي مع الطبيعة



سيرة فلاح يرفض نطق قسم الولاء لهتلر

جلسات التحقيق والتعذيب والحرب النفسية والتجويد كلها تقدم لنا عالما آخر مختلفا، فالاحتقان في أقصاه والمحامكات العسكرية جارية وعمليات الابتزاز والترويع تدفع السجين إلى الجنون، ومع ذلك يدفع محامي الدفاع أسماء فرانز ورقة تحمل صك براءته إن هو اعتذر وقبل بقسم الولاء، فسوف ينظر في التماس الإفراج عنه.

هذه الحبكة الثانوية التي تعصر القلب كانت بحاجة إلى دفعة معنوية من قبل الزوجة لكي تساعد فرانز على الرضا بالأمر الواقع للحفاظ على العائلة من التششت والضباع من بعده، وبالتالي الحصول على الإفراج، لكن ما لم يكن في الحسبان هو أن تتبنى الزوجة موقف زوجها مجاهرة بأنها معه في أي قرار يتخذه.

لننتقل بعد ذلك إلى تنوع مكاني - سردي آخر ممثل في مشاهد استدعاء السجناء الذين صدر في حقهم القرار القطعي وهم ينتظرون مصيرهم ويساقون إلى صالة الإعدام، هنا ثمة عالم آخر يؤكد فرانز أنه فعل الأمر الصحيح برفضه وعدم تنازله لأنه في كل الأحوال ميت، فليمت حرا كريما.

الذي يبقى هو صوت فرانز المدوي في مواجهة صوت الحرب إلى درجة أن قاضي التحقيق بدأ الشك يساوره، متأملا في رفض فرانز العرض المقدم له، مجرد ورقة يوقعا ويتم ساعتها العفو عنه. لكنه يعلم أنه سوف يعلن قسم الولاء والطاعة وسوف يتخلى عما كان بينه وبين زوجته وبين الطبيعة والمكان والتاريخ، وهو ما لا يريده ولهذا يمضي إلى نهايته الحتمية، الموت حرا.

الممثلان أوغست ديهل وفاليري بانتشير أبدأ في أداء دور الزوجين المنسجمين والرافضين للانصياع لحتمية الحرب



به، حيث يعتمد المخرج إلى ذلك التوازي المدهش بين الواقعي والوثائقي، بين الدرامي والإنساني، ثم تحضر الوثيقة، ليبدأ فرانز بالوصف وكيف يشعر بالأماكن، بحركة الفطار وضجيج العربات، وهكذا تكتمل منظومة بصرية أراد من خلالها تيرنس ماليك إجلالتنا إلى الأبيض والأسود في نسق تعبيرية عمق الدراما الفيلمية.

وخلال ذلك يحتاج المشاهد صبرا على ذلك التمثل النكي للصورة واللقطات والمشهد والتفاصيل الدقيقة والتحويلات الدرامية، صبرا على كثافة الانتقالات والتداعيات التي لا يحدّها زمان واضح ولا وجهة نظر معينة.

ولا شك أننا هنا لن نختلف مع العديد من النقاد الذين يؤمنون بأن تيرنس ماليك يقدم نمطا وشكلا وأسلوبا فريدا لا يتكرر، ويحتاج ويستحق المزيد من التاويل والقراءات المتعددة، وهو هنا في الغالب ليس معنيا بجماليات الكثير من الأشياء

وبما فيها البروفائيات ومشاهد الطبيعة التي يستخدم فيها عدسات تشوّه المنظور، وهو ما يكفّه في المعتقل الذي يساق إليه فرانز. تتجلى طبقات المعنى بشكل أكثر حدة إبان اعتقال فرانز ورفضه المتكّرر القسم لهتلر، هناك حيث جنرالات السجون والمحققون، وبهم سوف يتكامل عالم الرهبة حيث يدور فرانز حول نفسه وحيدا متحرّرا، لاسيما وأن قضيته قد تتطور إلى الإعدام ما لم يقع طارئ ما.

التنقل بين الزنانات وإخراج السجناء في فترات الاستراحة ثم

فرانز الإنسان ليس معارضا ولا سياسيا ولا ذا فكر سياسي، إنه مجرد إنسان لا يريد أن يتنازل عن المبدأ، أن تلك الحرب كارثة على البشر وأن قسم الولاء لهتلر ليس واردا.

في رحلة معاكسة، لن نجد فرانز سبيلا سوى أن يترك مجتمع القرية، هنا ينسج المخرج دراما مؤثرة من خلال تشكيل قوة دافعة جديدة ممثلة في سكان القرية الذين بدؤوا ببذون فرانز وأفراد أسرته ويعاملونهم بقسوة متناهية.

القرية التي لا مصلحة لسكانها مع هتلر ولا مع غيره وهي التي سكانها نأوون عن هتلر تنقل أفدتها إلى خيار مختلف تماما، إنهم فجأة هتليرون إلى النخاع وفرانز خائن يستحق رصاصة في الجبين. تلك هي المفاجأة الصادمة أن ذلك الفضاء الإنساني الذي نشأ عليه فرانز أصبح خشنا وصار يضيق عليه، وهو قرينه التي اعتاد عليها.

شعرية السرد

تتشبّه فاني بزوجها، لا تعرف في وسط تلك الدراما الضاغطة أيهما الصحيح، أن يبقى ويتحدّى ويصمد في وجه جميع الضغوطات والمنغصات أو أن يذهب إلى الحرب؟

قوتان في تلك الدراما تتنازعا ذلك الوجود الإنساني المهذّب، الصورة محمّلة بفيض من المشاعر الإنسانية التي لا تحتاج إلى شرح ولا إلى تفاصيل.

فرانز الإنسان ليس معارضا ولا هو صاحب فكر سياسي، إنه مجرد إنسان لا يريد أن يتنازل عن مبدأ رفضه الولاء لهتلر

هنا ثمة توظيف لشعرية السرد القائم على التنويع البصري ومع زيادة الضغط على فرانز تزداد وتيرة التشوّهات، وجوه قادمة من الحرب، مكان يتحوّل إلى ما يشبه صندوقا مغلقا، بينما فرانز يمارس طقوسه اليومية المعتادة من حصاد وسقي ورعاية الحيوانات، وإذا به يحمل حقيبته قاصدا هتلر والحرب مضطرا.

هذه النقطة المفصلية في الدراما الفيلمية كانت بداية تحوّل درامي - وثائقي من وجهة نظر فرانز في المقابل وخلال ذلك يتفوّق السرد القائم على غزارة الصورة وبنائها التعبيرية على الحوار الذي يكون غالبا متقطعا ونثارا من الجمل، وذلك هو أسلوب ماليك الذي يميزه عما عداه من المخرجين. هنالك عفوية في ما تتحدّث به الشخصيات، وحتّى فاني الزوجة لا تتحدّث كثيرا، لكنها تكاد تدوب حزنا على زوجها وجبا له.

بين الواقعي والوثائقي

سوف نعود إلى نقطة البداية؛ إلى الوثائقيات التي تظهر هتلر في بداية الفيلم وهو يتفكّد جمهوره المهووس

«حياة مخبأة» فيلم يعدّه النقاد أيقونة سرد شعرية لا يتقنها إلا المخرج الأميركي تيرنس ماليك صاحب المدرسة السينمائية المتفردة في رسم الأحداث بالصورة أكثر من الصوت. والفيلم الذي يستمرّ عرضه حاليا في الصالات العالمية بعد إعادة فتحها، يمرّ أمام المشاهد كقصيدة بصرية عن معنى الإيمان بمبدأ، وإن خسر الإنسان حياته فداء له.

قضية الإنسان وصراعه غير المتكافئ مع المحيط المستبد الذي يجاوره، تحضر هنا بقوة وسوف نعيش ونتعاش مع قصة فرانز (الممثل أوغست ديهل) التي تعود إلى وقائع حقيقية عندما تم استدعاء هذا الفلاح إلى الجيش الألماني، ولم يمض وقتا طويلا قبيل أن تتم إعادته، حيث أنه لم يشارك مشاركة فعلية في الحرب، إلا أن لهيبها كان قد لامسه لجهة عمق الذات الإنسانية وطقوس الإذلال التي من أهم علاماتها قسم الولاء لهتلر.

نقطة التمرّكز الإنساني بالنسبة إلى فرانز وزوجته فاني (الممثلة فاليري بانتشير) من منطلق كونها فلاحا هي الأرض، والطبيعة، وإذا بنا من نقطة التمرّكز الإنساني هذه سوف نجد الفلاح - الإنسان والأسرة الصغيرة ثم الأرض والطبيعة في مواجهة الحرب، فما الذي ستفعله الحرب بكل هذه المعطيات

مجتمعة؟ يجسّد المخرج تيرنس ماليك نوعا من العلاقة التكاملية بين الإنسان المتماهي مع الطبيعة حتّى يدنو من الصعب إن لم يكن من المستحيل انفصاله عنها، من هنا يزرّج المخرج بمنظومة بصرية هائلة ومتنوعة لعرض المكان الطبيعي وشكله وتوجّاهه وتفاعله مع الذات البشرية، التفاعل مع الهواء والطير والشجر ومواسم الحصاد والنهر والبئر والحيوان، كلها ينسب في وسطها فرانز حتّى تغدو جزءا عيقا من ذاته ولهدا لا يتخيّل انفصاله عنها.

سردية شاعرية مؤثرة تحتاج صبرا واتمنا عمقا إبان المشاهدة تلك التي تندفّق تباعا وعضويا ولا تعرف لها حدودا للإشباع، أو أنك لا تستطيع بالضبط أن تفهم أين ومتى يمكن أن تبدأ اللقطة أو المشهد، فالطبيعة تدور بمواسمها المتعددة والإنسان يدور معها، وهو يشقّ فيما أسطوانة النار التي تمثلها الحرب تدور وتتقل من بلد إلى بلد وتحرق في مسيرة انتقالها كل شيء.

فرانز حاله حال النمساويين وغيرهم في مثل سنّه يجب أن يلتحق بالجيش الهتلري، الاستدعاء أمامه، ورقة القدر التي تمتد بامتداد الشقاء الإنساني، فمن يستشير ومن سوف يكون معه في موقف الرفض وما هي التبعات؟ ها هو يتحدّث إلى القس ثم الأب راعي الكنيسة وكلاهما يحثانه على الالتحاق بالحرب، فيقول «كنني لا أستطيع أن أقتل أناسا أبرياء ولا أستطيع أن أقسم من أجل هتلر»، وحتّى رجال الدين لم يتركهم هتلر يمارسون عباداتهم بل جرّهم إليه عنوة فإما معه أو ضده.

في عمق الأزمة الوجودية التي تتجسّم بالنسبة إلى فرانز، هناك فلسفة معقدة هو الوحيد الذي يشعر بها وهي تفاعل في داخله، وذلك من خلال المشاهد التي يكاد يشكو فيها إلى الأرض والطبيعة، فلا يجد غير امرأته التي تحتضن حزنه.

نحن الآن في العام 1939 وألمانيا النازية في صعودها المدوي وأصداء نزعها التوسّعية تسمع في كل مدينة أوروبية، مع شعور متفاقم بالعجز عن الرفض أو الاحتجاج.

وأما على الجهة الأخرى فهناك عالم مسالم تماما سوف ننقل إليه، فلاحون وسط الطبيعة تحفّ بهم جبال الألب في قرية نمساوية هائلة، هؤلاء المسلمون البعيدون سوف تصل إليهم شواظ الهتلرية وتلقيهم رأسا على عقب. وكما هو أسلوب تيرنس ماليك فإن

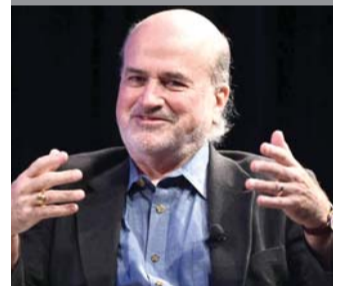


في انتظار المصير المحتوم

طاهر علوان
كاتب عراقي

كُنّا نتمنى أن نبني لنا عِشا هنا في الأعلى، كُنّا نتمنى أن نخلّق باتجاه الجبال، هي بضع كلمات وتمنيات على شاشات معتمة ما تلبث أن تزجّحها صور من الماضي تجعل مثل هذه التمنيات نوعا من الخرافة.

صور الماضي ما هي إلا صور انبثاق الهتلرية وصعودها المخيف وتحشيدتها لجمهورها العريض وقواعدها، ومنذ تلك البداية سوف تلمس شاعرية السرد التي يتوازى فيها خطان، الأول هو خط السيطرة والاستواء والحرب في مقابل خط الحياة الأمانة المسالمة قبيل أن تتسرّب إليها جرثومة الحرب فتفتك بها. لن تجد في فيلم «حياة مخبأة» إلا سجلا طويلا يعتر عن الخطين السريدين اللذين رسمهما بعناية فائقة المخرج الأميركي تيرنس ماليك في أحدث ما قدّم عبر تاريخه السينمائي الاستثنائي.



تيرنس ماليك يزرّج في فيلمه بمنظومة بصرية هائلة ومتنوعة لعرض المكان الطبيعي وشكله وتفاعله مع الذات البشرية

ومالك ذاك المخرج المتقشّف الذي ياكل الفيلم الواحد من عمره سنوات كما هي الحال في فيلمه الأخير «حياة مخبأة»، اتحفنا هذه المرة بقطعة فنية استثنائية، وهو فيلمه العاشر على أية حال وقد أخذ منه عدة سنوات إلى أن قدّمه لجمهوره جاهزا ثم توارى عن الأنظار من جديد كعادته.

رحلة معاكسة

نحن الآن في العام 1939 وألمانيا النازية في صعودها المدوي وأصداء نزعها التوسّعية تسمع في كل مدينة أوروبية، مع شعور متفاقم بالعجز عن الرفض أو الاحتجاج.

وأما على الجهة الأخرى فهناك عالم مسالم تماما سوف ننقل إليه، فلاحون وسط الطبيعة تحفّ بهم جبال الألب في قرية نمساوية هائلة، هؤلاء المسلمون البعيدون سوف تصل إليهم شواظ الهتلرية وتلقيهم رأسا على عقب. وكما هو أسلوب تيرنس ماليك فإن